المناظرة الأدبية وسماتها الفنية في الأدب العربي

أ.د/ تمساح على احمد أحمد نحيلة

فى محيط أدبنا العربى تتزاحم الفنـــون ، وتتعدد الإتجـاهات التعبيرية حسب مقامات الحديث ومواطن الكلام ، ومما يساعد المنشىء على ذلك غزارة مفردات تلك اللغة العظيمة ، والتى يعجز الادراك عن حصرها ، الأمر الذى سوغ لهذه اللغة ان ينزل القرآن الكريم بها على حبيبه ومصطفاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وفى سياحة فكرية حول النصوص الأدبية وقع نظرى على هـذا الفن الأدبى فن المناظرات فى النثر الأدبى ، وهو لون من التعبير عرف لدى الأدباء العرب منذ أمد بعيد ، غير أنه لم يحظ بالاهتمام والبحث بالقدر الذى يجعل النفس تطمئن اليه كفن أدبى له خصائصه وسماته المميزة .

والواضح ان مصادرنا الأدبية مليئة بهذه النصوص التى تمثل فن المناظرات فى العصر الجاهلى والإسلامى والأموى والعباسى مما يجعل النفس تركن اليه ، وتتعهده بالبحث والتنقيب ، خاصة وأنه يكشـف عن الجوانب الابداعية عند الأديب ، فهو يعتمد على زكانه الفكرى ، وفطنة العقـل فى قوة المحاجة ، وخلق الحـوار المنظم الذى يدحض الخصم ، ويضعه فى موضع الاستسلام .

والمناظرة فرع من الجدال القائم على الأدلة والبراهين والحوار المنتظم ، ولم يجد هذا الفن الاهتمام الذى حظيت به أنـواع النثر الأدبى فى العصور المختلفة .

المناظرة فى نظرى تنقسم الى قسمين :

أولا : واقعية وهى تمثل الواقع الملموس وحقائق الأمور التى يدور فى معترك الحياة وتتنوع الى عدة أنواع من أهمها :

١ ــ المناظرة الاجتماعية : كالحديث عن الشعوب والقبائل والصلات العرقية والعادات والتقاليد الشائعة فى المجتمعات لاثبات الحقيقة والوقوف على الجوانب المثالية فى البيئات المختلفة وهذا النوع كان واضحا فى العصر الجاهلى •

٢ ــ المناظرة السياسية : وهى التى تسير فى كنف السلطة واقامة الأدلة الدامغة لتثبيت دعائمها ، وقد تعتمد هذه المناظرات على الرمز والاشارة فى عبارتها •

٣ ــ المناظرة الدينية : وهى التى تقرر عن طريق المحاجة صدق العقيدة وتثبيت جوانب الدين وتقرير المسائل الفقهية والتشريعية ، وقد سادت هذه المناظرات فى العصر العباسى بين الفقهاء والمتكلمين والفرق الدينية •

ثانيا ــ المناظرة الخيالية : وهى التى يركز فيها الأديب على مواطن الابداع والتصوير الذى يعتمد على الخيال والمبالغة فى الأمور ليلفت الأنظار لما هو طريف وينسجم مع الذوق الأدبى الرفيع وقد غص العصر العباسى بهذه المناظرات وسوف نعرض بعضا من النماذج لهذه المناظرات لنتعرف من خلالها على خصائصها الفنية وسماتها التعبيرية •

٣ ــ مناظرة بين النعمان بن المنذر وكسرى أنوشروان(١) :

« قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم ، والهند

---

(١) جواهر الأدب ج ١ ص ٢٢٤ السيد أحمد الهاشمى طبع مكتبة المعارف بيروت •

والصين . فذكر من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بن المنذر بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثني فارس ولا غيره ، فقال كسرى واخذته عزة الملك : يانعمان لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم . ونظرت فى حاله من يقدم على من وفود الأمم — فوجدت للروم حظا فى اجتماع ألفتها وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وان لها دينا يبين حلالها وحرامها ، ويرد سفيهها ويقيم جاهها — ورأيت الهند نحوا من ذلك فى حكمتها وطبعها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ، وكذلك الصين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها ، وهمتها فى الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها — والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم ، ولم أر العرب شيئا من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ، ولا قوة ، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر من الناقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها وفروجها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الابل التى يرعاها كثير من السباع لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وأن قرى أحدهم ضيفا عدها مكرمة ، وأن أطعم أكلة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ماخلا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فجرى لها ذلك الى يومنا هذا ، وان لها مع ذلك آثارا ولبوسا ، وقرى وحصونا ، وأمورا تشبه بعض أمور الناس (يعنى اليمن) .

ثم لا أراكم تستكينون من المذلة والقلة ، والفاقة ، والبؤس ، حتى تفتخروا ، وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

وقد عقب النعمان بمناظرته البليغة فقال :

أصلح الله الملك . حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها ، الا أن عندى جوابا لكل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فمن أمنني من غضبه نطقت به .

قال كسرى : قل فأنت آمن . قال النعمان (٢) :

أما أمنك أيها الملك فليست تتنازع فى الفضل اوضعها الذى هى به من عقولها وأجلالها وبسطة محلها وبحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك ، واما الأمم التى ذكرت فأية أمة نقرنها بالعرب الا فضلتها .

قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها .

فأما عزها ومنعتها ، فانها لم تزل محاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنيتهم السيوف ، وعدتهم الصبر — اذ غيرها من الأمم ، انما عزها الحجارة والطين ، وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يعرف فضلهم من ذلك على الهند المدرفة والصين المنحفة ، والترك المشوهه والروم المقشرة .

وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم الا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها ، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دينا فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب الا يسمى أباءه

---

(٢) جواهر الأدب ١/٢٢٦/٢٢٧ .

أبا فأبا ، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعى غير أبيه .

وأما سخاؤها ، فان أدناهم رجلا الذى تكون عنده المكرمة والناب، عليها بلاغة فى عموله وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفلذة، ويجتزى بالشربة فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه فيما يكسبه لاحسن الأحدوثة ، وطيب الذكر . وأما حكمة ألسنتهم ، فان الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للامثال ، وابلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من السنة الاجناس — ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعاونهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع ومطايادم التى لا يبلغ على مثلها سفر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر . وأما دينها وشريعتها فانهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نكه فى بدينه أن لهم أشهرا حرما وبلدا محرما وبيتا محجوبا ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثاره ، وادراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه عن تناوله بأذى .

وأما وفاؤها ، فان أحدهم يلحظ اللحظة ورمى الايماءة فهى ولت « أى عهد » وعقده لا يحلها الا خروج نفسه ، وان أحدهم يرفع عودا من الأرض ، فيكون رهنا بدينه ، فلا يقلق رهنه ، ولا تخفر ذمته، وان أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته ، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره .

وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك يئدون أولادهم ، فانما يفعله من يفعله منهم بالأناث من العار ، وغيرة من الأزواج .

وأما قولك أفضل طعامهم لحوم الابل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها الا احتقارا له ، فعمدوا الى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوما ، وأطيبها لحوما ، وأرقها ألبانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وأنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها ، الا استبان فضلها عليه .

وأما تجاربهم وأكل بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فانما يفعل ذلك من يفعله من الأمم اذا أنست من نفسها ضعفا ، وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف ، وانه أنما يكون فى الحكمة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم . وأما العرب فان ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطئ « الضرب الشديد على الأرض » بالعسف ، وأما اليمن التى وصفها الملك ، فانما أتى حد الملك اليمنا الذى أتاه عند غلبة الجيش له على الملك متسق وأمر مجتمع فأتاه مسلوبا طريدا مستصرخا ولولا وتريه من يليه من العرب لمال الى مجال ، ولوجد من يجيد الطعان ويغضب للاحرار من غلبة الأشرار .

فواضح من خلال هذه المناظرة ما يتمتع به النعمان بن المنذر من قوة فى المحاجة ومقدرة فى الحوار الذى دار فى هذه المناظرة ، فقد استطاع أن يرد على كسرى بما يحرز الفوز له مع أخذه الحيطة والاحتراس لنفسه لأنه يجلس فى مجلسه وتحت سقف امارته وهو يعلم تماما من كسرى بعنفوانه وجبروته .

وهذا لم يكن على سبيل الاستنباط أو التخمين وانما ظهر ذلك فى تصرفات كسرى مع النعمان وثنائه لما جاء به النعمان حيث أعجب بما أجابه النعمان وقال « انك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل اقليمك ، لم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة »(٣) .

وهذه المناظرة تفصح عن تحامل ملك الفرس على العرب ، وما ينطوى عليه نفسه تجاه النعمان بن المنذر خاصة من بين جلاسه ووفوده ، غير اننا نلحظ فطنة النعمان فى مستهل حديثه حين مجده واشاد بقوته « رضاء لصلفه وغروره ثم أخذ يعود محاسن العرب وميزاتهم وذلك بعد استئذانه منهم واتجه فى نهاية حديثه الى تفنيد رأيه فى العرب ، وذلك بما يثار له فى مناظرته العظيمة ، حيث استطاع أن يحول هذه الأمور التى رآها كسرى عيبا ونقصا فى حق الى محاسن ومفاخر تشهد للعرب بفوزهم وبسبقهم لقيت فى نفس النعمان الاعجاب والاستحسان واستمع اليها بصدر رحب وذلك ان دل فانما يدل على ما كان يتمتع به النعمان من اصغاء للرأى والحكم بعقل متفتح وفكر ثاقب يزن الأمور ويعطيها حقها .

وهذه المناظرة التى تليت فى بلاط السياسة جمعت كثيرا من الخصال العربية فى حياتهم الاجتماعية فى كونها تصور لعادات العرب وتقاليدهم وما عرفوا به من أنفة وعزة حيث صرح بذلك النعمان بن المنذر بكثير منها فى رده وتفنيده لآراء ملك الفرس وفى هذا الجمع المهيب الذى جمع بين طبقات مختلفة واجناس متباينة » .

ففى معرض تلك المناظرة التى يقرر فيها كسرى بأن العرب لا يخضعون لحاكم يجمعهم ولا لسلطان يوحد كلمتهم وعد ذلك عيبا

---

(٣) جواهر الأدب ١/٢٢٨ .

فيهم يجيبه النعمان بأن ذلك الأمر من مفاخر العرب حيث لا يوجد من بينهم الضعيف الذى يقاد ، فهم يتسابقون جميعا الى المراتب السامية وغرائزهم التى طبعوا عليها فهم يتسابقون أيضا على الملك بما لهم من همة وأنفة فليس من السهل خضوعهم ، وانقيادهم لانسان يسوسهم أو يقودهم .

فتلك المناظرة تمثل الأدب الرفيع لفن المناظرة فى العصر الجاهلى بما انطوت عليه من خصائص وسمات تألقت بهما مناظرة النعمان بن المنذر وشاهد صدق على نضج الفن النثرى فى العصر الجاهلى لدى العرب ، وذلك ما أردنا أن نقرره ونستوضحه فى بحثنا هذا ، وأن هذا الفن أخذ يتطور حتى صار فنا رفيعا فى العصر العباسى بما حواه مجتمعه من أحزاب سياسية وفرق دينية متعددة وقد لعبت الثقافة الوافدة على العربية دورها فى فن المناظرة الأدبية آنذاك وسوف نستوضح ذلك فيما يأتى من مناظرات فى العصر العباسى حيث زاد الاهتمام بهذا الفن لأنه يعد مطلبا من مطالب الحياة آنذاك ويترجم لنا شوقى ضيف سر هذا النهوض فيقول : « وفى الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرة العقل العربى الى أبعد غاية ، فقد أمدوه بسيول من دقائق المعانى وخفيات البراهين وجعلوه عقلا جدلا ما يزال يثقب عن حيثيات الأفكار ، وما يزال يجلب من أعمق الأعماق دررها الباهرة ، وقد تحاوروا على الأشياء المشهورة يصححونها ويسددونها ، وقد تحاور معهم كثير من معاصريهم الذين مضوا على شاكلتهم الحوار فى كل شىء (٤) .

ولم يأت ذلك من فراغ فلقد عرفنا دور الثقافة الوافدة والتى

---

(٤) تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول) ٤٦١ د. شوقى ضيف ط دار المعارف المصرية .

ترجمت الى العربية فى العصر العباسى الأول فقد أثقلت الفكر العربى بمعان جديدة وألوان أدبية متعددة مما جعل العرب يسيرون فى نهضة أدبية رائعة يحتذون فيها حذو هذه الأمم التى اطلعوا على ثقافتها وحضارتها وساعدهم على ذلك ما لهم من لغة متسعة الجوانب فسيحة الأركان غزيرة المفردات لم تتعثر فى التعبير عن هذه الأشياء الوافدة، خاصة وأن لها سابق عهد بفن المناظرة على ضوء ما قررناه سابقا .

ومن أشهر الأدباء الذين برعوا فى فن المناظرة فى العصر العباسى الأول أبى الهذيل بن العلاف المتوفى حوالى عام ٢٣٠ هـ ومما رواه المرتضى فى أماليه تلك المناظرات بينه وبين اليهودى الذى قدم البصرة وتعرض لمتكلميها « يقول لهم : ألا تقرون بنبوة موسى عليه السلام ؟ حتى اذا اعترفوا بها . قال : نحن على ما اتفقنا عليه الى أن نجتمع على ما تدعونه » فتقدم اليه . وقال له : أسألك أم تسألنى؟ فقال له اليهودى : بل أسألك . فقال : ذاك اليك . فقال اليهودى : اتعترف بأن موسى نبى صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك . فقال له أبو الهذيل : ان كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشر بنبى عليه السلام وشهد بثبوته وصدقه فهو نبى صادق ، وان كان غير من وصفت فذلك شيطان لا أعترف بنبوته ، فورد على اليهودى ما لم يكن فى حسبانه ، ولم يلبث أن سأل أبا الهذيل : انقول ان التوراة حق ؟ فقال : هذه المسألة تجرى مجرى الأول : ان كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة بنبى عليه السلام فتلك حق ، وان لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقر بها ، فبهت اليهودى وأفحم ولم يدر ما يقول .

ومن مناظراته أنه ناظر يوما مجوسيا ، فسأله (٥) : ما تقول فى

---

(٥) تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى) ٤٥٨ .

النار ؟ قال : بنت الله ؟ قال : فالبقره ؟ قال : ملائكة الله قص أجنحتها وحطها الى الأرض يحرث عليها ، قال : فالماء ؟ قال : نور الله • قال : أبو الهذيل فما الجوع والعطش ؟ قال : فقر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل فمن يحمل الأرض ؟ قال بهمن الملك حينئذ قال أبو الهذيل : فما فى الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ثم شدوها ببنت الله ، ثم دفعوها الى فقر الشيطان وفاقته، ثم سلخوها على رأس بهمن الملك أعز ملائكة الله ، فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه •

واضح من هاتين المناظرتين ما فيها من رقى الفكر وعمق التعبير وذلك نتيجة لما أصاب العقل العربى آنذاك من تبصرة فى صنع الحوار ودفع الحجج والبراهين التى يستند اليها المناظر ، وذلك ليس بغريب فى مجتمع كثير فيه النزاع وتشعبت الأمور ، وتصدر فيه رجال يدافعون عن العقيدة التى أضحت هدفا للكافرين والمعاندين للدين الحنيف الذى جاء به خير الانسانية سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — ونحن نلحظ فى هذا قدرة فائقة فكيف استطاع أبو الهذيل أن يقنع خصومه وينتصر عليهما ، فلا يجدان شيئا يدفعان به ما جاء فى كلام أبى الهذيل وهاتين المناظرتين يمثلان الاتجاه الدينى فى فن المناظرة التى عبرت عن جميع مناحى الحياة بأسلوب أدبى » •

ففى هذه الآونة ازداد الصراع بين طوائف المجتمع وكذلك بين علماء الكلام من الفرق الدينية المختلفة ، ظهر ذلك بوضوح عند المعتزلة فى حوارهم ومناظراتهم ، فقد استطاعوا أن يصهروا العقل فى التعبير عن المناحى العلمية بأسلوب أدبى والباحث فى نصوصهم يتعرف « كيف كانوا يقدرون على أخضاع المعانى العلمية للتعبير الأدبى، أو

بعبارة أخرى كيف كانوا يقدرون على تبسيط المعانى العلمية والفلسفية وبخليتها وعرضها عرضا أدبيا شائقا »(٦) .

وقد اعتمد علماء المعتزلة على ما لديهم من ثقافة واسعة كان لها دورها الكبير فى صقل حاستهم الأدبية ، فقد اجتمع لديهم مايلم يكن فى أسلافهم ، فدرسوا الثقافة الفارسية والهندية ، واليونانية ، فضلا عن لغتهم العربية الأصيلة لذلك فليس بغريب على الأديب كأبى الهذيل من أن يقنع خصمه وينتصر عليه بما أوتى من معرفة بدقائق الأشياء وضح ذلك فى حوارهم « من دقة فى المعانى ، ومن حسن سبك وأداة حتى ليعنى بعض المتحاورين بأن يكون كلامه مسجوعا ، مما يدل دلالة بينة على أن المتناظرين كانوا لا يزالون يتعهدون كلامهم ويصوغونه صياغة باهرة ، وبذلك أعدوا لتطور النثر تطورا واسعا فى مضامينه الجديدة التى لم يكن للعربية بها سبيل ، وفى أساليبه وما شفعوها به من حسن السبك وجمال الصياغة والأداء »(٧) .

وذلك ما لاحظناه فى المناظرات الأدبية حيث جاءت فصيحة بليغة تدل على أن صاحبها لم يأت بها عيثا أو من قبيل المصادفة ولكن رأيناها مشحونة بالقيم الجمالية فى التعبير من استعارات يعبر بها المنشىء عن أغراض متنوعة وأذهان متعددة حسب اتجاهات الحديث وضروب الكلام خاصة فى الأمور التى تتطلب سرد الحجج والبراهين لقمع الخصم حتى لا يجد ما يتلفظ به لترجيح دعواه .

وحينما نتصفح كتب الأدب تطالعنا نماذج عديدة لفن المناظرة خاصة فى العصر العباسى كما ذكرنا ، وقد تطور هذا الفن وأعمل فيه

---

(٦) أدب المعتزلة ٢٦٧ د. عبد الحكيم بلبع الطبعة الثالثة دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

(٧) تاريخ الأدب العربى العصر العباسى ٤٦٤ د. شوقى ضيف .

الأحياء الخيال ليقوم بدوره فى خدمة اللغة والحياة الأدبية التى أصبحت زاهرة ومتجددة ، وسوف نعرض بعضا من هذه المناظرات التى يبرع أصحابها فى خلق جواتبها وتجسيد مظاهر الطبيعة ثم تشخيصها واستنطاقها بما بثه فيها من حياة ..

مناظرة بين فصول العام لابن حبيب الحلبى المتوفى فى ٤٠١هـ(٨):

قال الربيع : أنا شاب الزمان ، وروح الحيوان ، وانسان (٩) عين الانسان ، أنا حياة النفوس ، وزينة عروس الفروس ، ونزهة الأبصار، ومنطق الأطيار (١٠) ، عرف أوقاتى ناسم ، وأيامى اعياد ومواسم ، فيها يظهر الغيات ، وتنشر(١١) الأموات ، وترد الودائع وتتحرك الطبائع ، ويمرح(١٢) جيوب (١٣) الجنوب (١٤) ، ويزح (١٥) وجيب (١٦) القلوب ، وتفيض عيون الأنهار ، ويعتدل الليل والنهار، كم لى عقد منظوم ، وطراز وشى مرقوم ، وحلة فاخرة وحيلة ظاهرة، ونجم سعد يدنى راعيه من الأمل ، وشمس حسن تنشدنا : « يا بعد ما بين برج الجدى والحمل » (١٧) عساكرى منصورة ، واسلحتى مشهورة ، فمن سيف غصن مجوهر ، ودرع بنفسج مشهر ومغفر

(٨) جواهر الأدب فى أدبيات وانشاء لغة العرب ١/ ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(٩) ما يرى فى سوادها .
(١٠) العرف : الريح الطيبة .
(١١) تنتشر : تحيا .
(١٢) يمرح : ينشط .
(١٣) جنيب : ريح تخالف الشمال مهبها من مطلع سهيل الى مطلع الثريا .
(١٤) ريح مخالف الشمال ومنه اذا جاءت الجنوب جاء معها خير كثير .
(١٥) يبعد ويذهب .
(١٦) خفقانها .
(١٧) برجان فى السماء .

شقيق (١٨) أحمر ، وترس بهار يبهر ، وسم آس يرشق فينشق ، ورمح سوسن(١٩) سنانه أزرق ، تحرسها آيات ، وتكتنفها ألوية ورايات في تحمر من الورد خدوده ، وتهتز من البلن قدوده ، ويخضر عذار الريحان ، وينتبه من النرجس طرفه الوسنان ، وتخرج الخبايا من الزوايا ، ويفتر ثغر الأقحوان » قائلا أنا ابن جلا وطلاع الثنايا :

ان هذا الربيع شيء عجيب يضحك الأرض من بكاء السماء
ذهب حيث ذهبنا ودرنا حيث دورنا وفضة في القضاء

وقال الصيف :

أنا الخيل الموافق ، والصديق الصادق ، والطيب الحاذق اجتهد في مصلحة الأحباب ، وأرفد عنهم كلفة حمل الثياب ، وأخفف أثقالهم ، وأوفر أموالهم ، وأكفيهم المؤونة ، وأجزل لهم المعونة وأغنهم عن شراء الفراء ، واحقق عندهم « أن كل الصيد في جوف الفرا » نصرت بالصبا ، وأتيت الحكمة في زمن الصبا ، بي تتضح الجادة (٢٠) وتنضج من الفواكه المادة ، ويزهو البسر والرطب ، وينصلح مزاج العنب ، ويقوى قلب اللوز ، ويلين عطف التين والموز ، وينعقد حب الرمان ، فيقمع الصفراء ، ويسكن الخفقان ، وتخضب وجنات التفاح ، ويذهب عرف (٢١) السفرجل مع هبوب الرياح ، وتسود عيون الزيتون ، وتخرج تيجان النارنج والليمون ، مواعدي منقودة ، وموائدي ممدودة ، الخير موجود في مقامي ، والرزق مقسوم في أيامي .

الفقير ينصاع (٢٢) بملء مده وصاعه ؛ والغني يرتع في ربع ملكه

---

(١٨) نبت أحمر فيه بقع سوداء وهي شقائق النعمان .
(١٩) سوسن نبات طيب الرائحة .
(٢٠) الطريق .
(٢١) عرف الريح الطيبة .
(٢٢) ينتقل راجعا مسرعا .

واقطاعه ، والوحش تأتى زرافات (٢٣) ووحدانا ، والطير تغدو خماصا وتروح بطانا •

مصيف له ظل ظليل على الورى ومن حلا طعما وحلل أخلاطا
يعالج أنواع الفواكه مبديا لصحتها حفظا يعجز بقراطا

وقال الخريف :

أنا سائق الغيوم وكاسر جيوش الغموم ، وهازم أحزاب السموم(٢٤) ، وحادى نجائب السحائب وحاسر نقاب المناقب ، أنا أصد الصدى ، وأجود بالندى ، وأظهر كل معنى جلى ، وأسمو بالوسمى (٢٥) والولى ، فى أيامى تقطف الثمار ، وتصفو الأنهار من الأكدار ويترقرق (٢٦) دمع العيون ، ويلون ورق الغصون طورا يحاكى البقم ، وتارة يشبه الأرقم وحينا يبدو فى حلته الذهبية ، فيجذب الى خلته القلوب الأبية ، وفى يكفى الناس هم الهوام ، ويتساوى فى لذه الخاص والعام ، وتقدم الأطيار مطربة بنشيشها رافلة فى الملابس المجددة عن ريشها ، وتعصر نبت العنقود وتوثق فى سجن الدن بالقيود على أنها لم تجترح اثما ، ولم تعاقب الا عدوانا وظلما ، فى تطيب الأوقات ، وتحصل اللذات وترق النسمات ، وترمى حصى الجمرات ، وتسكن حرارة القلوب ، وتكثر أنواع المطعوم والمشروب كم لى فى شجرة أكلها دائم ، وحلها للنفع المتعدى لازم ، ورقها على الدوام غير زائل ، وقدود اغصانها تخجل كل رمح ذابل :

ان فصل الخريف وافى الينا يتهادى فى حلة كالعروس

---

(٢٣) السموم الريح الحارة •
(٢٤) العدى : العطش •
(٢٥) الوسمى المطر الذى يأت فى الخريف والولى الذى يأت بعده •
(٢٦) يترقرق : يتحرك الدمع •

غيرك كان للعيشون ربيعها ، وهو ذا بيننا ربيع النفوس

وقال الشتاء :

أنا شيخ الجماعة ورب البضاعة والمقابل بالسمع والطاعة أجمع شمل الأصحاب ، وأسدل عليهم الحجاب ، واتحفهم بالطعام والشراب، ومن ليس له بى طاقة أغلق من دونه الباب أميل للمطيع القادر المستطيع المعتصر بالبرود والفرا ، المتمسك من الدنيا بأوثق العرى ، ومن يعش عن ذكرى ولم يمتثل أمرى أرجفته بصوت الرعد ، وأنجزت له من سيف البرق صادق الوعد ، وسرت اليه بعساكر السحاب ولم أقنع من الغنيمة بالاياب ، معروفى معروف ، ونيلى نيل موصوف ، وثمار أحسانى دانية القطوف ، كم لى من طويل المدى « وجود » وافر الجدا «وفطر» حلى مذاقه « وغيث » قيد العصاة اطلاقه « وديمة » تطرب السمع بصوتها « وحيا » يحيى الأرض بعد موتها أيامى وجيزة ، وأوقاتى عزيزة ، ومجالسى معمورة بذوى السيادة مغمورة بالخير والبر والسعادة ، فقلهما يأتى من أنواعه بالعجب ومناقلها تسمح بذهب اللهب وراحها تنعش الأرواح ، وسقاتها بجفونهم السقيمة تفتن العقول الصحاح ان ردتها وجدت مالا ممدودا ، وان زرتها شاهدت لها بنين وشهودا .

فاننا نقف أمام تلك المناظرة في عجب واستحسان لما جاء به أبو حبيب حيث ابدع فى تجسيم هذه الفصول الأربعة وبعد ذلك يقوم بتشخيصها وجعلها انسانا يتحدث معه ويصور له احاسيسه ومشاعره وما فيه من مواطن الحسن التى تجعله يتفوق على الآخرين .

فننظر الى فصل الربيع نراه يتباهى ويتفاخر لأنه أساس للشباب

ومرتع للحيوان وفيه تطمئن النفوس بما يتراءى للعين من حدائق مزهرة وبساتين مورقه ، وفيه تهطل الأمطار وتغرد الطيور كل هذه الأمـور يحدثنا بها فصل الربيع .

ثم يتحدث فصل الصيف عن نفسه بأسلوب بليغ وتعبير فصـيح من كونه صادق فى أفعاله يعطى الانسان قوة ونشاطا ويمنحه الثقـة فى نفسه بترك الثياب الثقيلة وما هو على كاهل الانسـان من همـوم واحزان ثم يتحدث فصل الخريف من كونه سائق للسحب والغيـوم وما يحدث فيه ازهار واكتمال للأوراق اليانعة ، والغصون المتطاولة وتبدو فيه البساتين كأنها حلل ذهبية مما يجعل النفس فيه تستريح من الهموم فتفح فيه الشهية بما يكثر من أنواع الطعام والشراب .

ويأتى فصل الشتاء ليتحدث عن نفسه فيذكر :

بأنه القائم على تلك الفصول ، ويستحق بالنسبة لهم الصـدارة والزعامة ومن يعصه فى ذلك فيرجفه بأصـوات البرق وفزع الرعد ، لذلك فهو يشد الانتباه ويجعل الانسان تقوى الذاكـرة سريع الفهم لصحة بدنه وسكينته .

وهكذا يخلع ذلك الأديب على هذه المناظرة ألوانا فنيـة ، ويظهر لنا من خلالها براعته ، ومقدرته الفائقة فى سرد الأمور بلسـان هـذه الفصول ، ويخلق فى جوانبها صراعا على الفوز والسبق فى مجريات الطبيعة وعناصر الكون يعمل فيها خياله الذى يصـور الأمور وكأنها ماثلة فى ربوع الكون .

ويحدثنا المقدسى المتوفى عام ٨٧٥هـ(٢٧) .

---

(٢٧) جواهر الأدب ١/٢٨٦ ، ٢٨٧ .

قال الجمل :

أنا أحمل الأحمال الثقال ، وأقطع بهـا المراحل الطوال ، وأكابد الكلال ، وأصبر على مر النكال ، ولا يعترينى من ذلك ملال ، وأصول بصولة الادلال بل أنقاد للطفل الصغير ولو شئت استعبطت على الأمير الكبير ، فانا الزلول وللاثقـال حمول ، لست بالخـائن ولا الغلول ، ولا الصائل عند الوصـول ، أقطع فى الوحول ما يعجز عنه الفحول ، وأصبر الظلماء فى الهاجر ولا أحول ، فاذا قضيت حق صاحبى ، وبلغت مآربى القيت حبلى على غاربى ، وذهبت فى البوادى اكتسب فى حـلا زادى ، فاذا سمعت صوت حادى ، سلمت اليه قيادى وواصـلت فيه نهادى ، وطلقت طيب رقادى ، ومددت اليه عنقى لبلوغ مرادى ، فأنا ان ضللت فالدليل هادى،وأنا ان زللت آخذ بيدى من اليه انقيادى،وان ظمئت فذكر الحبيب زادى ، وأنا المسخر لكم باشارة (وتحمل أثقالكم) فلم أزل بين رحلة ومقام حتى أصل الى ذلك المقام .

فقال الحصان :

أنا أحمل صاحبى على كفلى ، فأجتود به فى السـير ، وأنطلق به كالطير أهجم هجوم الليل ، واقتحم اقتحام السـيل ، فان كان طالبا أدرك بى طلبه ، وان كان مطلوبا قطعت عنه سـببه ، وجعلت أسباب الردى عنه محتجبـا ، فلا يدرك منى الا الغبار ، ولا يسـمع عنى الا الأخبار وان كان الجمل هو الصابر المجرب فأنا السابق المقرب ، وان كان هو المقتصد اللاحق ، فأنا المقرب السابق ، فاذا كان يوم اللقـاء قدمت اقدام الواله ، وسبقت أسباق النباله ، وذلك متخلف لثقل أحماله وان أوثق سائس قيدى ، وآمن قائدى كيدى أوسقت بشـكالى لكى لا أحول على أشكالى ، والجمت بلجام كيلا أغفل عن قيامى ، وان علت الحديد اقدامى كى لا أكل عن اقدامى ، فأنا الموعود بالنجاة،والمعذ لنيل

الجاه المشدد للسلامة المقصود للكرامة ، قد أجزل المنعم على أنعامه ، وأمضى بالعناية الأزلية أحكامه (فان الخير معقود بنواصى الخيل الى يوم القيامة) خلقت من الرياح وألهمت التسبيح وما برح ظهرى عزا ، وبطنى كنزا ، وصهوتى حرزا ، فكم ركضت فى ميدان السباق ، وما أبديت عجزا ، وكم خززت رؤس أهل النفاق خزا ، وكم أخليت منهم الآفاق (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) .

ففى هذه المناظرة نرى المقدسى يصنع كما صنع ابن حبيب حيث أدخلا مما عنصر الخيال فى المحادثة غير أن المقدسى شخص الحصان والجمل وجعلهم أناسا يتحدثون ويتفاخرون وابن حبيب حسم هذه الفصول ثم قام بتشخيصها وعلى أية حال فاننا نرى جانب الابداع يملؤ جو هذه النصوص ويكسوها حللا من الفن النثرى الرائع .

فننظر الى الجمل وهو يذكر محاسنه التى يبارز بها الحصان من كونه قوى يتحمل المشاق صابر على قطع المسافات فى عزيمة وجلد ومع هذا فهو لا يغتر بنفسه زاول ينقاد للأطفال ، ولو شاء لم يقف فى طريقه الأبطال ، ويقتبس فى حديث ما ذكر عنه فى القرآن .

وننظر الى الحصان وهو يتباهى ويتعالى بسرعة وانقياده ، فهو المنقذ فى حومة الوغى لذلك فهو مدلل مقرب ، ويشير الى علامة راكبه من عزة واقدام وكرامة واحسان جلاب للخير مناع للفقر ويشير الى حديث المصطفى — ﷺ — عنه وذلك بأسلوب شيق تلتئم اليه النفوس .

ونرى المقدسى يأتى بأساليب مليئة بألوان البديع الذى يجعل للنص منظرا حسنا تستريح اليه القلوب وتصغى اليه الآذان لحتويه من موسيقى وجرس فنى لايناق النص .

وبعد هذه النماذج التى ذكرناها لفن المناظرة الأدبية تتضح لنا سماته وخصائصه الفنية ومن الممكن بعد هـذا العرض أن نذكر أهم هذه الخصائص :

أولا : أن هـذا الفن فى الغالب يكون بين خصـمين متضـادين أو متغايرين فى صفاتهما يقوم كل منهما بالاحتجاج لنفسـه واقناع خصـمه بأدلة لا تقبل النقاش فيهـا مرة أخرى بحيث تحط من قدر الخصم وتلزمه التسليم .

ثانيا : أن تعتمد أدلة الاحتجاج على أسلوب شيق يحفل بألوان البديع وصور واضحة تزيد النص جمالا وتكون من واقع الحياة .

ثالثا : أن ما جاء فى هذه المناظرات قد صيغت معانيه صوغا حسنا حتى يأنس السامع بالاصغاء الى فكر فى المناظرة .

رابعا : أن هذه المناظرات قد تطورت فى العصر العباسى واعمل فيها الأدباء الخيال الذى ألبسوه ثوب الحقيقـة على نحو ما ذكر فى مناظرة ابن أبى حبيب والمقدسى .

خامسا : أن فن المناظرة سهل الألفاظ واضح المعانى لا يميل فيه الأديب الى التعقيد أو الغرابة .

تلك هى أهم السمات الفنية للمناظرة وقد أصـبح واضـحا أن المناظرة فن عظيم والذى أدرناه من ذلك هو توجيه نظر الباحثين اليه والبحث عن جوانبه المتعددة وأبعاده الفسيحة .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب

أ.د/ تمساح على أحمد أحمد نجيلة
الأستاذ المساعد بقسم
الأدب والنقد بكلية اللغة العربية
بأسـيوط